بحث فى كتاب

بعنوان

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ورسالة

الأستاذ الدكتور/ الصادق عرجون

تقديم وتحليل

أ.د / محمد نيسان سليمان مناع

أستاذ التاريخ الإسلامى وعميد الكلية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد ابن عبد الله أفضل خلق الله خلقاً وأكرمهم روحاً، صلى الله عليه وسلم ورضوان الله على آله وأصحابه والسلف الصالح وبعد .

فقال تعالى فى محكم كتابه ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[١] ، وقال أيضاً ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾[٢]، وقال أيضا ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾[٣] ، وقال أيضاً ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٤]، وقال أيضاً ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى * يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾[٥] .

إن أحداث السيرة النبوية قد تناولتها مصادر ومراجع عديدة منذ القرن الثانى الهجرى حتى القرن الحادى عشر الهجرى، وهذه المصادر والمراجع متنوعة من حيث الكم والكيف هذا بالإضافة إلى غير المتخصصين فى التاريخ الإسلامى مثل المصادر الأدبية والبلاغية وغيرها، ونظراً لأننى قد تعاملت مع هذه المصادر والمراجع إما قارئ أو باحث أو مؤلف، فإننى

---

(١) سورة الفتح / الآية ٢٩ .

(٢) سورة الحجرات / الآية ٣ .

(٣) سورة النجم / الآية ١٠ .

(٤) سورة سبأ / الآية ٢٨ .

(٥) سورة الأحزاب / الآية ٥٦ .

أقدم للباحثين كتاباً جمع بين الأصالة القديمة ومعالجة القضايا التاريخية، التى وردت فى المصادر القديمة، وسوف يجد الباحث فى هذا الكتاب، النهج العلمى، والأسلوب القوى، والفكرة الهادفة، إعتمد المؤلف على مصادر أصيلة ثم عرض قضايا السيرة النبوية بأسلوب يدل على فهم ووعى.

وهذا الكتاب هو بعنوان / محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهج ورسالة بحث وتحقيق الأستاذ الدكتور/ محمد الصادق ابراهيم عرجون العميد السابق لكلية أصول الدين بالقاهرة، ولقد رحل عنا بجسده ولكن ما زالت روحه تعيش معنا بهذا الكتاب وبغيره من المؤلفات التى ألفها .

والكتاب يقع فى أربع مجلدات أو أجزاء وكل جزء يقع فى ستمائة صفحة من القطع المتوسط، ومطبوع طباعة ممتازة فى دار القلم بدمشق، ويوزع فى أغلب البلاد العربية والإسلامية .

والمقدمة فى الجزء الأول لهذا الكتاب تكشف لنا عن اهتمام المؤلف بأحداث السيرة النبوية عرضا وتحليلا، ومن هنا يظهر الفرق بين مؤلف ناقل من المصادر والمراجع دون تحليل أو اضافة أو مناقشة، ومؤلف بذل الجهد فى تقديم صورة مشرقة واضحة عن أحداث السيرة النبوية فى حقبها المكى والمدنى، بأسلوب ممتاز جمع بين وعى المفسر والمحدث واللغوى والفقيه والمؤرخ، وهذا المنهج قلما نجده فى مؤلف واحد فى عصرنا الراهن .

فقد قال الأستاذ الدكتور عرجون عن فكرة الكتاب :

ليس هذا الكتاب حشداً لروايات أحداث السيرة النبوية، وجمعها من شتيت مؤلفاتها ودواوينها فى مؤلف واحد، كما صنع كثير من الاعلام فى

جمع كتب أمهات الحديث وغيرها من كتب الفنون التى شهرت بالجوامع، ولكنه فكرة دراسية للحقائق والمعانى التى تضمنتها وقائع السيرة .

وقد راودتنى فكرة هذا البحث منذ زمن بعيد لا أستطيع تحديده تحديداً يقف به عند تاريخ معين باليوم والشهر والسنة، وإنما هى فكرة لمعت فى ذهنى فكانت أشبه بأشعة الشمس عند الإصباح، ثم لم تزل تعلو وتشتد فى حياتى التواقة الى البحث حتى استوت فى كبدها شمساً وهاجة بددت من أفق تفكيرى سحائب التسليم المستسلم لكل ما أقرأ من كتب الأقدمين من أئمة أعلام الاسلام الذين تخصصوا فى أحداث السيرة النبوية ورواياتها، والذين شهروا برواية الحديث، والذين جمعوا فى تفسير القرآن الحكيم روايات سميت تفسيراً بالمأثور .

وكانت قراءاتى متدرجة من مرحلة الى مرحلة، وفى كل مرحلة وقفات للفكر متسائلة: أهذا صحيح؟ أهذا معقول؟ وكنت أجيب نفسى عن تساؤلاتى بأجوبة مستسلمة لأصحاب الهالات المشهرة، ولكن ذلك كثر كثرة خشيتها على تفكيرى، وخشيتها على دينى وعقيدتى .

فرجعت الى القرآن العظيم، واتخذته وحده الصديق الحميم الذى أصغى اليه وأحاول أن أفهم عنه، وصفيت نفسى بقدر المستطاع عن الاتصالات لغير جرسه، والاستماع لغير هديه، ورسمت لنفسى مع القرآن العظيم خطة لأستخلص منه ما أستنقد به نفسى من الاستسلام الموبق أياً كان المتكلم غير القرآن الحكيم فى جميع ما جاء به، أو الرسول الأمين فى كل ما ثبت صحته بالرواية عنه بغير معارض أقوى منه .

وللقرآن الكريم منهج فى بنائه الفنى هو رأس اعجازه بهدايته التى أنزل بها أمانة فى عنق الأمة الاسلامية لتطبيقها واقعاً فى حياة مجتمعها أينما حل من أرض الله، والاعجاز بالهداية هو معجزة القرآن الخالدة خلود العقل، أما الاعجاز الأسلوبى فى براعة البيان وروعة الأداء فهو اعجاز خاص بمن يفهمه ويزنه بميزان ركائزه من البلاغة العربية التى ذهب أهلها بعد أن استعجموا، فلم يبق على ظهر الأرض من يقوم بحمل أمانته السليفة ولا بالتعلم لما سماه البلاغيون بلاغة وبراعة، وانما هو شئ رسخ فى قلوب المسلمين، لأن عجز أهل السليفة البيانية عن معارضته مع شدة وخذ التحدى المتدرج حجة على عجز من لم يكن من هذه السليفة البيانية بد ولا لبد، فهذا الاعجاز الاسلوبى فى روعته معبر للاعجاز بالهداية الباقية الخالدة، وبالهداية كان الاعجاز عاماً شاملاً للزمان والمكان والأجيال والأفكار، وقد بينا ذلك فى (القرآن العظيم: هدايته وإعجازه فى أقوال المفسرين) وأعنى بالبناء الفنى للقرآن العظيم هذا التنوع فى أداء المقاصد الشاملة لحاجات الحياة افراداً وجماعات، عقيدة وتعبداً وتشريعاً، وانظمة اجتماعية وآداباً خلقية وتربية سلوكية .

وكانت اللبنة الأولى فى هذا البناء الفنى هى الحديث عن شخصية حامل رسالة القرآن ﷺ ، وكان هذا الحديث منوعاً لو جمعت آياته فى إطار التصور الحسى لكانت هى (محمد رسول الله منهجاً ورسالة) .

ومن هنا بدأت فكرة الكتاب، فبدأت من جديد أقرأ ما كتب عن محمد رسول الله فى مؤلفات القدامى والمحدثين، وأحكم فيه القرآن بما جاء فيه عن محمد رسول الله، فصادفتنى فجوات ومهاوى فى روايات أصحاب السير

لا تنسجم معه هداية القرآن، وألح على الشك فى هذه المؤلفات، وتوجهت الى كتب الحديث أقرأ فيها عن محمد رسول الله، وإذا بى كلما أمعنت فى القراءة كلما ازدادت على مضايق الفكر من كثرة الاختلاف بين الروايات وكثرة الأغاليط فى الحقائق والمعانى .

فعولت على أن أدرس حياة محمد رسول الله، لا محمد العبقرى، ولا محمد البطل، وأسجل مما أقرأ بميزانى للروايات القائم على الموازنة بينها فى صحة السند وصحة المتن، فأيتها رجحت كفته فى صحة السند والمتن قبلته وسجلته، وبينت سبب قبوله بأمور نقلية وعقلية، غير إنى وجدت باب المعجزات الكونية مقفلا على العقل، فلا يصح أن يتحكم فيه، لأن العقل معزول عن تجاوزه حدوده فى سنن الله الخاصة، وباب المعجزات الكونية من هذا القبيل بشرط أن يصح صحة لا يعارضها ما هو أعلى منها، وجمعت مما سجلت الكثير الطيب مستعيناً بالله الرحيم الودود .

ثم قال المؤلف عن هدف الكتاب :

وقد كان أن تبلور فى صدرى هدف الكتاب، إذ وجدتنى (متكيفاً) بروح ما جمعت وما سجلت، وإذا بهذه الروح تشرق بشمسها فى آفاق نفسى وتلح على أن أستخلص نور السيرة النبوية من ركام سحب الظلام الذى نسجت بردة الروايات العاطفية والنقول التقليدية التى لا تقف أمام الحقائق بميزان العقل وتحقيق البحث .

ورجعت أقرأ ما جمعت وما سجلت، وأنقيه من غلس الأساطير ليبرز منه منهج الرسالة فى معالمها الواقعية فى التطبيق السلوكى الشامل لعناصرها فى الكليات والجزئيات، وكان أن استوى هدف الكتاب على سوقه فى إطار

إبراز معالم منهج الرسالة الخالدة فى شخص محمد رسول الله ﷺ .

وفى هذا الفصل تتجلى قوة الصراع بين الحق والباطل، وبين الإيمان والعواطف، إذ قلما صادفتنى رواية فى معناها وموضوعها لم تعارضها رواية أو روايات أخرى، وهنا تظهر عشرات الأكابر ذوى الهالات المشهرين فى تاريخ التراث الاسلامى ولا سيما فى رصد روايات السيرة النبوية وأحاديثها وأحداثها، وتتغلب العواطف على العقل، ويقف العقل كالمتهم البرئ الذى لا يجد ناطقاً بحجته، وأخوض فى هذه اللجة حذراً من المزالق، وجلا ممن أناقش، لأنه اقتعد ذروة الشهرة والاستسلام لما يقول، وحسبه عند المتعاملين انه (فلان) ومن الذى يرد على (فلان) روايته أو قوله؟ .

ولكن أطلت الوقوف، ثم استعنت الله، وقلت لنفسى: هذا دين به تلقين الله، وعنه تسألين من الله تعالى فانظرى: هذه الجنة ونعيمها، وهذه النار وجحيمها، وأنى لى بالصبر على النار، ولجأت الى الله تعالى مستغيثاً أرجو رحمته، وعزم لى الأمر أن أكتب ما وصلت إليه باجتهادى، وسألته أن يرزقنى حسن النية وقصد السبيل فيما إليه قصدت، وهو الغفور الودود، ولكنى كنت أكتب متحوطاً لنفسى، ومتوقعاً لنقد الناقدين، متصدقاً بما ينالنى مستغفراً لنفسى ولمن ظلمنى، راجياً أن يقع هذا البحث موقع القبول الذى يفتح للباحثين أبواب الولوج الى ساحة التراث الاسلامى المبتلى بالتشويه لتنقية الحقائق من غلس الأباطيل، حتى لا يكون لأعداء هذه الرسالة الطاهرة المطهرة سبيل الى هدم معالمها بمعاول التدسيس فى تراثها .

ثم قال المؤلف عن مادة الكتاب :

كانت المادة التى بنى منها صرح هذا الكتاب قريبة المنال، سهلة التناول، معروفة المعالم، لا تخفى على طلبة العلم بله العلماء والأعلام، فهى: أولا - القرآن الحكيم من بين دفتى المصحف، لا من تفاسير المفسرين التى قد يحوج البحث الى النظر فيها، ولكن لا على انها مصدر البحث ومرجع التحقيق، بل على أنه مثل لما قبل، وفيها ما فيها .

والقرآن الحكيم عرض لكثير من أحداث السيرة النبوية ووقائعها، فهو فيما عرض إليه أصل الأصول، ومصدر النور، ليس وراء حجته حجة، ولا مع دليله دليل، ونصه هو القاطع للخصومة، وقوله هو الفصل .

ثانياً - السنة المطهرة التى صح نقلها عن رسول الله ﷺ لا تعارضها شبهة، وهذه الصحة لا تقف عند صحة السند، ولكن لابد فيها من صحة المتن، بل ان صحة المتن أهم وأعظم، ونعنى بصحة المتن عدم مخالفة ما يروى لأصل من أصول الاسلام، دون لجوء الى التأويلات المتعسفة، وعصمة الأنبياء فى عقيدتنا أصل من أصول الايمان والاسلام، فإذا جاءت رواية تمس من قريب أو بعيد عصمة محمد ﷺ وجب طرح هذه الرواية كان من كان راويها لأنه غير معصوم من الوهم والغلط .

ثم بين المؤلف منهج الكتاب فقال:

تتبع النص فى الموضوع الواحد والمسألة الواحدة بالنظر الى ما فيها من اختلاف أورثها إياه مذهب القائلين بجواز رواية الحديث بالمعنى، وهو

مذهب أدى إلى ضياع كثير من التعبيرات النبوية - هـو الأساس الأول فى منهج الكتاب .

وفى اطار هذا المنهج بدأت البحث، وفى اطاره تكامل الكتاب الذى لا يجد فيه قارئه شيئا غريبا عن معارفه التى قرأها فى مصادر السيرة النبوية، لأن مادته التى بنى على أساسها هى الروايات المتداولة بين أهل العلم قديماً وحديثاً، ومن قبلها آيات القرآن العظيم التى جاءت متحدثة عن محمد رسول الله ﷺ فى خطاب خاص فى الوصف أو التوجيه ورسم طرائق تبليغ الرسالة، وبيان معالم الأسى به ﷺ ، أو جاءت متحدثة تعمه بالخطاب مدخلة معه مجتمعه المسلم اينما كان وكيفما كان، أو جاءت متحدثة عن حوار بينه ﷺ وبين مجتمعه المسلم من أهل الكتاب والمشركين، أو كان تحديثاً عن المجتمع المسلم وتربيته تربية سلوكية لتكون له وراثة التأسى به.

بيد أن القارئ سيجد فى الكتاب تحقيقات وتعليقات، وبحوثاً تناقش هذه الروايات لتستخلص من اضابيرها الصحيح الذى يتفق مع حياة رسول الله ﷺ الانسانية منذ ولادته الى أن فارق دنيا الناس الى الرفيق الأعلى، ويتفق مع ما ثبت عنه ﷺ ثبوتاً أقرب فى صحته الى القطع الذى لا يقبل الشبهات .

وهذه التحقيقات والتعليقات والبحوث هى فى الحقيقة العنصر الأصيل فى هدف الكتاب، وهى اذا جردت من الكتاب كانت أضخم حجماً وأعظم قدراً من نصوص الروايات، ولكنها لارتباطها بالروايات ارتباطا لا تنفصم عراه، ولا تحل وثاقته يجعل من العسير القريب من المحال تجريدها عنها لأن الكتاب حينئذ يفقد حقيقته التى بنى عليها .

ومن ثم بدأت الكتاب بمقدمات تمهيدية عن (محمد ﷺ من نبعته الى بعثته) وهى مقدمات جرى فيها البحث عن الحياة الانسانية التى عاشها سيدنا محمد ﷺ بشراً بين قومه وأغصان دوحته القرشية، عربياً متكامل الخلق والخلق، متنائياً بعقله عن مزالق العبودية لغير الله .

وفى هذه المقدمات عرضت لنا روايات تتحدث عن ارهاصات كونية، لا يسارع العقل الى تسليمها والايمان بها، وهنا كان لنا موقف مع العقل و(العقلانيين) فى مدى ما يمكن ان تصل اليه مدارك العقل من حقائق الكون العظيم، وهو بحث مفيد فى الحديث مع هؤلاء الذين يؤلهون العقل، ويعطونه حق التحكم المطلق فى أحداث الحياة والكون، بينا فيه بالأدلة والحجج الواضحة أن كثيرا جداً من حقائق هذه الحياة وهذا الكون العقل معزول عن ادراكه، لأن العقل محدود التكوين، ومحدود الادراك، ولكننا قلنا أن الاعتماد فى مثل هذه الروايات على صحتها صحة ترفعها الى امكان القبائل رداً الى اقتدار الله تعالى، على أن ردها فى هذه المرحلة البشرية التى لم تكن معها نبوة لا يخدش الايمان فى قليل أو كثير .

وقد عدنا لهذا البحث عند الحديث عن المعجزات الكونية التى ثبت وقوعها بعد الرسالة، فقد تكاثرت روايتها تكاثر يصعب معه ردها، وهى من روايات الصحيح، وذكرنا فى ذلك كثيراً من الأمثلة القائمة فى حياة الناس أفراداً وجماعات، وهم بعلمائهم الكونيين عاجزون عن ادراك حقائقها ومعانيها ولكنهم ينتفعون بآثارها التجريبية، ووقفنا فى صدد قبولها أو ردها عند توثيق رواياتها من الثقاة المشهود لهم بالعلم والفضل، ورأينا أن عدم

قبولها لعجز العقل البشرى عن الوصول الى سنتها الخاصة التى قام عليها وجودها جرحة فى ايمان المؤمن، لأن كثرتها فى سياقات الصحاح يجعل من الصعب جداً انكارها أو التوقف مع العقل فى عدم قبولها، لأن ذلك يفتح الباب أمام انكار الغيبيات التى هى بعيدة المنال عن مدارك العقل، وكثيراً منها من أصول الايمان .

وقد بدأنا البحث بعد هذه المقدمات بالحديث عن الوحى والنبوة وحقيقتهما ومعناهما، ثم خصصنا الحديث عن نبوة محمد ﷺ ، وناقشنا هنا بعض الأكابر ذوى الهالات المشهرة من علماء الاسلام فى مؤلفاتهم التى نالت ما يشبه الاجماع على قبول ما روت وجمعت، كما ناقشنا قول الملاحدة فيما يعترى النبى ﷺ من قوة الروحانية حين تلقيه الوحى مناقشة علمية مستقاة من آيات القرآن الكريم، وومضات العقل، وآثار الهداية التى لم يشهد لها التاريخ مثيلا فى آثار دعوات الأنبياء والرسل، وهم صفوة الخلق فى هذه الحياة .

وقد أقمنا بناء الكتاب على مرحلتين أصيلتين أجرينا الحديث فى أحداثهما: المرحلة المكية، والمرحلة المدنية، وكانت فى كل مرحلة منهما تحقيقات لأحداث وأحاديث، ولا سيما المرحلة المكية وما كان فيها من مواقف النبى ﷺ فى ايمانه برسالة نفسه ودعوته الى الله، واشتداد الخطوب والكوارث عليه وعلى أصحابه، حتى أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ليخرجوا بالدعوة وتبليغ الرسالة الى مجال يجدون فيه أرضاً يستنبتونها، وبينا بياناً شافياً أن هذه الهجرة كانت من أعظم السياسات الحكيمة التى ساس بها ﷺ

مجتمعه، وبينا أن هذا المجتمع الذى كان طليعة لرواد الدعوة من أهل الرسوخ فى الايمان واليقين لم يكن كما تقول بعض الروايات من الفقراء والعبدان والضعفى، بل كان فيهم كثرة غامرة من أعلياء بيوت قريش منافيين، ومخزوميين، وزهريين، وأعلياء بعض القبائل التى كانت خارج مكة، وهنا كتبنا فصلا مسهباً بسطنا فيه البحث فى أخبث قصة اشتملت عليها أحداث السيرة، تلك هى قصة الزندقة الكبرى أضلولة (الغرانيق)، وقد أتينا فى هذا البحث على ما يقرب من جميع ما قيل فيها إثباتاً لا يعتمد إلا على خيط العنكبوت، ونفياً اجتث جذورها، رمى بها فى هاوية الأباطيل التى كيد بها الاسلام وكتابه القرآن المجيد، وقد كان أغرب ما صدفناه أننا وجدنا بين من يثبتها ويتعصب لإثباتها ممن يشار اليهم فى الاصطلاح الفكرى فى تاريخ الاسلام ثم ذكرنا مواقف قريش من النبى ﷺ وموقف عمه أبى طالب فى دفاعه عنه وحمايته، ومحاوراتهم معه، ورد رسول الله ﷺ على عمه، وذكرنا موقفاً غريباً جداً ليلة الهجرة وائتمار المشركين به مما أشار اليها القرآن الكريم، ولم نجد فى الروايات ذكراً قط لبنى عبد مناف عامة أو الهاشميين خاصة إزاء هذا التآمر الدنئ، وتساءلن: أين بنو عبد مناف، وأين الهاشميون؟ وهو موقف غريب جداً فى اهمال أهم الأحداث والمواقف، ورأينا فى حديث خروج رسول الله ﷺ من بيته ليلة الهجرة فجوات واسعة لم تسدها الروايات بل اضطربت فيها اضطراباً واسع الاطراف، واعتمدنا حديث عائشة عند البخارى ووجدنا كثيراً من الروايات تخالف هذا الحديث وهو فى القمة من الصحة، وقد عالجنا ذلك معالجة علمية رددنا فيها المواقع الى مواطنها من البحث .

ثم بدأنا الرحلة الى المدينة آخذين بركاب رسول الله ﷺ وصحبه وصديقه أبى بكر رضى الله عنه، ولم نغفل حادثاً من حادثات الطريق كانت له أهمية فى معالم منهج الرسالة دون تحقيق روايته وبحث وقائعه .

وتجاوبت آفاق المدينة وما حولها بوصول النبى ﷺ الى قباء، وكانت اللهفة تحمل أهل المدينة على الخروج الى مشارفها ليتلقوه ﷺ ، وكان للقلم سبحات فى وصف هذا اللقاء الأكرم من الرجال والنساء والأطفال، ونزل ﷺ حيث أنزله الله فى أشرف بقعة من بقاع المدينة، وفيها بنى مسجده الشريف أول ما وضع من شئ، وقد أخذ بناء المسجد الشريف جولات من القلم فيها بحوث وتحقيقات أبرزت هذا المسجد كآية من آيات الله تعالى فى تصوير معالم منهج الرسالة فى بناء المساجد فى العالم الاسلامى، ومقاصدها فى بساطة بنائها وما يجب أن يكون فيها من مرافق اصلاحية .

ثم عقدنا فصلا مطولا للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، مؤاخاة تكافلية فى الترافق والتواصى والتواسى، وأبنا موقف الأنصار من هذه المؤاخاة التكافلية، ذلك الموقف الذى سجله القرآن وبلغ به درجة الإيثار، وناقشنا مزاعم القائلين بالتوارث بين المهاجرين والأنصار، وأبطلنا ذلك بالأدلة التاريخية، والوقائع النقلية .

ثم جاء الجهاد القتالى بعد أن استنفد جهاد الحجة والمجادلة بالتى هى أحسن، وبينا أن المشركين هم الذين اشعلوا نار هذا الجهاد، وكان موقف النبى ﷺ منه موقف المدافع عن دعوته، دعوة الحق والهدى والنور والخير.

وبدأت الغزوات والبعوث والسرايا وعقد الألوية والرايات لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة وإزالة العوائق من طريقها، وقد رأينا أن استيعاب جميع الغزوات والبعوث والسرايا صعب جداً لا يمكن تحقيقه مع حاجته الى استغراق زمن طويل، فاخترنا أهم الغزوات للبحث والتحقيق، ووقفنا مع قضية أسرى بدر وما جاء فى شأنها فى القرآن من معاتبة على أخذ الفداء، وأبطلنا بالأدلة الواضحة مزاعم الذين أدخلوا النبى ﷺ فى هذه المعاتبة، ثم قفينا على الموقف فى غزوة أحد مبدأ ونهاية، وما كان فيها من أحداث وكوارث تحمل منها النبى ﷺ أعظمها، ثم وقفنا مع آيات العتاب التى نزلت بها سورة آل عمران، وحللنا الآيات تحليلا أبان انها من أعظم معالم منهج الرسالة فى علاقة القائد الأعظم بجيوشه وكتائبه، ثم تابعنا بقية ما اخترنا من الغزوات، وفى كل غزوة مواقف مثيرة تعثرت فيها الروايات، فبذلنا جهداً مضنياً فى تحقيق الحق، وعرضنا لقصة الإفك عرضاً كانت فيه آيات القرآن شمساً بددت ظلام النفاق فى هذه المسألة الشائكة، واستبعدنا اعتماداً على بعض القرائن والشواهد أن يكون أحد ممن ثبت له صحبة النبى ﷺ قد شرك فى هذه الموبقة، ولم نزل نمشى مع الأحداث حتى جاءت معاهدة الحديبية، فأعطيناها حقها من التحقيق والبحث، وأعقبها الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة الذى بلغت فيه سماحة النبى ﷺ ذروة الفضائل الانسانية .

ثم عرضنا لغزوة حنين وما كان فيها من دروس لتربية المجتمع المسلم ردت اليه كرامته وعزته وأنزل الله نصره على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وكانت مكارم رسول الله ﷺ فى غنائم هذه الغزوة من المؤلفة قلوبهم ومع

ذوى الحاجة من عامة المؤمنين مما لا يستطيع القلم ان يحيط بوصفه، واتصل ذلك بغزوة ثقيف وما كان للنبى ﷺ من سياسة حكيمة أنزلتهم من حصونهم وافدين الى المدينة ليسلموا ويبايعوا رسول الله ﷺ ، وفى غزوة حنين كان للأنصار موقف تولى رسول الله بنفسه غسل صدورهم من آثاره .

ثم جاءت أعظم الغزوات جيشاً وأخطرها قدراً فى مقصدها وأعظمها تضحية، تلك هى غزوة تبوك، وفى روايات أحداثها تحقيق وبحث يرفعان راية الحق والهداية، وقد ذكرت الروايات أموراً مختلفة فى أسباب هذه الغزوة التى حشد لها النبى ﷺ طاقة البشرية، وبذل فيها أثرياء الصحابة وفقراؤهم أقصى ما استطاعوا من البذل فى سبيل الله، وقد كان أبو بكر ذروة الباذلين فتبرع بجميع ما يملك، وقفاه عمر وعبد الرحمن بن عوف، وكان عثمان بن عفان هو المثل المضروب فى البذل الذى لم يلحقه فيه أحد، كما أنفق الذين لا يجدون إلا جهدهم من القليل الذى فى أيديهم ما طابت به أنفسهم. وقد ذكر رواة السيرة فى سبب هذه الغزوة روايات مختلفة متضاربة، فناقشناها مناقشة نقد وتمحيص وبحث وتحقيق، ولم يثبت لدينا منها سوى إشارة فى رواية، أمسكنا بها وشرحناها شرحاً بينا به أن السبب الحقيقى لهذه الغزوة هو التطبيق العلمى لعموم الرسالة، وتجرؤ العرب على الرومان والفرس، وقد كان اسماهما كفيلين ببث الرعب فى قلوبهم استعظاماً لقوتهما، وقد جعل النبى ﷺ هذا التطبيق العلمى تفسيراً لقول الله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ .

وقد كانت غزوة تبوك آخر غزوات رسول الله ﷺ ، ثم توالت بعدها وفادات وفود من بقى متربصاً من قبائل العرب، وقد اخترنا من أحاديث هذه الوفود ما صحت روايته وإن اختلفت الأساليب وما رأينا فيه شيئاً من معالم منهج الرسالة الذى هو الهدف الحقيقى للكتاب، ثم اخترنا من كتب رسول الله ﷺ الى الملوك والرؤساء داخل الجزيرة العربية وخارجها بعضها مما رأينافيه من دروس التربية للأمة ما يجعله جديراً بالبحث والتسجيل .

ثم أفردنا لموقف اليهود من الاسلام ونبيه ومجتمعه باباً فى الكتاب أخرناه لنوحد الكلام على طوائفهم، لأن ما شبوا فيه وشابوا عليه من الغدر وخيانةالعهود والنفاق والتآمر والمكر والكيد والحسد ورجس العقيدة - كان على سمة واحدة فى جميع طوائفهم، وقد ابرزنا فى هذا الكتاب الكثير من خلائفهم التى عاشوا ويعيشيون بها فى المجتمع الانسانى، ورددنا مزاعم الذين لا تقبل نفوسهم تماثل الجزاء فيما جازاهم به النبى ﷺ على غدرهم به وهو فى دارهم ونقضهم العهود ليأسه من صلاح حالهم .

ثم جاء الحديث عن الشمائل النبوية والاخلاق الذاتية لرسول الله ﷺ مع الناس والحياة، ولم نشأ أن ندخل فى مضائق الافتراءات الكافرة والأباطيل الملحدة حتى لا تفتح نوافذ الجدل والمراء للذين طووا صدورهم على معاداة واضعاف شأن المسلمين .

وبعد: فهذا إجمال يأخذ بيد من ينظر فى سطوره الى ساحة الكتاب الواسعة، ليقرأ متأنياً، يخوض فى لجج قضاياه ومسائله التى نالها التحقيق والبحث، وهى كثيرة كثرة توائم ضخامة حجم الكتاب فى وزنه كما، وتلائم

حقائق أحداثه ومعانيه كيفاً، عسى أن يجد فيه أهل العلم دافعاً يدفعهم الى النظر والبحث فى كتب التراث الاسلامى لتنقيتها من أوضار الأضاليل التى أدخلها على هذا التراث أعداء الاسلام قديماً، فقبلها أهل السلامة والاستسلام .

وبعد هذا العرض الذى قدمته عن مؤلف الكتاب، فإنه يعد من أفضل الكتب التى تناولت أحداث السيرة النبوية فى حقبها المكى والمدنى، فقد عالج الدكتور عرجون، كثيراً من قضايا السيرة النبوية ومنها، فترة الوحى، حادثة شق الصدر، والاسراء والمعراج، وحادثة الهجرة الى المدينة المنورة هذا بالاضافة الى الغزوات والسرايا، بأسلوب ممتاز وعرض شيق مبدع، وغيرها من الأحداث التاريخية التى جاءت بها النصوص التاريخية جامدة فى أغلب المصادر القديمة، وكلما قرأت الكتاب فإننى أجد عند كل مرة، معلومات كثيرة، وخبرات جمة، تدل على سعة الاطلاع، ورؤية المتبصر وعمق الفهم، مع الأسلوب العلمى، الذى يصحبه فى الغالب الأعم، التمحيص الدقيق والموازنة الواعية بين الحوادث، وربطها بمسبباتها وإرجاعها إلى مصادرها الموثوق منها، وهذا ما يتطلبه منهج الدراسات التاريخية، البحث المنقب والتقصى المدرك مع الموازنة والترجيح، يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته، وهو يتحدث عن فن التاريخ "إذ هو فى الظاهر لا يزيد عن أخبار الأمم والدول والسوابق فى القرون الأولى، تنمو فيه الأقوال وتضرب فيه الأمثال وتطرف بها الأندية، إذا غصها الاحتفال، تؤدى لنا شأن الخليفة، كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق

والمجال، عمروا الأرض، حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال، وفى باطنه نظر وتحقيق، فهو لذلك أصيل فى الحكمة، دقيق"[1] . ولا شك أن التاريخ علم وفن علم فيه من أدواته البحث والتقصى والمنهاج، وفن فيه من أدواته الأداء والعرض والتصوير والتفاعل مع أطواره، والتبويب والحوار، وكل هذا المنهج وجدته فى كتاب الدكتور عرجون "محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ورسالة" ولا يفوتنى أن أذكر أن الدعم التاريخى الذى تناوله المؤلف من أصدق وأوثق المصادر التاريخية ليس للهوى اليه سبيل ولا للعاطفة عليه سيطرة إلا العاطفة الإيمانية التى ظهرت فى أغلب ثنايا الكتاب وقد سرد المؤلف الأحداث التاريخية، أبنا فيها قدرات الرسول عليه السلام أمام قوى الضلال وأعلام الطاغوت . والكتاب فى جملته دائرة معارف يستحق غاياته المسلمين والمثقفين والقراء، فجزى الله المؤلف الأستاذ الدكتور عرجون خير الجزاء، وأسكنه جناته .

والله الهادى الى سواء السبيل ،،

الأستاذ الدكتور
محمد نيسان سليمان
أستاذ التاريخ الإسلامى
وعميد الكلية

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص٢٦٠ .